التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم

حسن حنفي، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2000؛ 192ص.

يحاول هذا العرض تقديم قراءة لكتاب «التراث والتجديد» الذي يقدم عرضا مسحيا لمشروع الدكتور حسن حنفي. ففي نهاية سبعينيات القرن الماضي أطلق المفكر المصري حسن حنفي مشروعه الضخم تحت عنوان «التراث والتجديد». ابتدأه بكتاب نظري «التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم» دشَّن فيه المشروع، ورسم خارطته المعرفية، والأجزاء التي سيتناولها هذا المشروع. في ضوء ما نشره هذا المفكر، يُمكن أن نقسِّم مشروع الدكتور حسن حنفي إلى ثلاثة أجزاء:

- الجزء الأول يتمثَّل بالموقف من التراث القديم، وذلك بإعادة بناء العلوم النقلية (الحديث والتفسير والفقه) والعلوم العقلية (علم أصول الدين والفلسفة وأصول الفقه والتصوف) والعلوم الإنسانية والرياضية .. إلخ. وقد أصدر في هذا الجزء عدة كتب أهمها: «من العقيدة إلى الثورة»، «من الفناء للبقاء»، «من النص للواقع» وغيرها.

- الجزء الثاني يتمثّل بالموقف من التراث الغربي، وهو توضيح لموقفنا من التراث الغربي دون أي تراثٍ آخر؛ وذلك لأن حنفي يقول إن هذا التراث هو الذي أثَّر فينا، وقلدناه، وانتهجناه. وقد دشَّن لهذا العلم كتابه الهام: «علم الاستغراب».

- الجزء الثالث ويتمثَّل بنظرية التفسير، في الجمع بين الحضارتين بقراءة مُعاصرة للتراث من أجل إنشاء ما يُسميه حنفي بـ«لاهوت الأرض»، وبتحويل الدين إلى إيديولجيا. ولم يصدر في هذا الصدد أي دراسة حتى الآن، نظرًا لأن هذا الجزء لا يُكتب فيه إلا بعد انتهاء الجُزءين الأوَّلين.

أما بالنسبة لكتاب: «التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم» فهو بيان حسن حنفي لمشروعه، الذي خطَّط لبنائه الذي سيُشيّده فيما بعد. تأتي أهمية هذا الكتاب من كونه يلخَّص جيدا أفكار ومشروع حسن حنفي؛ فيستطيع القارئ بعد قراءته أن يلم - ولو نظريا— بمشروعه مترامي الأطراف.

تعريف التراث

يبدأ الكتاب فصله الأول بتعريف التراث، فيعرِّف التراث بأنه كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة. ومن هذا

التعريف، ينطلق حنفي في دراسته ليس على مستوى دراسة التراث دراسة إبستمولوجية (معرفية) فحسب، بل يدرسه كمعطى حاضر عند الجماهير. فالتراث عند حسن حـنفي ليس هو تماثيل الأفكار في متحف الماضي، بل هو مخزون شعوري عند الجماهير. فالتراث مُتبلور في شعور الجماهير، وهي تتصرفو صباحا ومساء من خلاله، علِموا ذلك أو لم يعلموا. لذلك فالتراث والتجديد— مشروعه— يهدف للانتقال من علم اجتماع المعرفة إلى تحليل سلوك الجماهير، أي من العلوم الإنسانية إلى الثقافة الوطنية.

التراث عند حسن حنفي هو محاولة كل عصر أن يفهم أو أن يكوِّن نظريات من خلال فهمه لأصول الدين (القرآن والسنة) من خلال الواقع. وأوّل ما يُلاحظه قارئ كتاب حنفي هو صراخ الواقع الكامن في السطور. بل يمكن أن نقول إن حسن حنفي أسَّس ما يُسمَّى بـ«إيديولوجيا الواقع». فقد انطلق في مشروعه من التراث بقتلِه بحثًا وفهمه، من أجل إعادة بنائه مرة أخرى من خلال علومه لأجل الواقع. والواقع هو الذي أنشأ علوم التراث ابتداء، بل هو الذي على أساسه نزل الوحي كاستجابة للواقع. أيْ أنَّ حنفي يعتقدُ بأسبقية الواقع على الفكر.

مع هذا، لا يرفض حسن حنفي التفسيرات القديمة أو العلوم القديمة للدين. لا، لا يقول ذلك. بل يقول بأنَّ هذه العلوم وهذه التفسيرات كانتْ مناسبة لواقعهم هم المُختلف عن واقعنا التاريخي والزماني الآن. لهذا اجتهد في إعادة بناء العلوم القديمة ورؤيتها من خلال واقعنا الآن. وهذا سيأتي بيانه في نهاية الكتاب.

المواقف من التراث والتغيير

يُعالج المؤلف في الجزء الثاني من هذا الفصل الوضعَ الحالي لمشكلة التراث والتجديد في عالمنا العربي والإسلامي التي تتنازعها ثلاثة مواقف أو حلول حتى الآن:

1. الموقف الأول القائل بالاكتفاء الذاتي بالتراث، وأن تراثنا قد حوى ما مضى وما هو حاضر وما هو آتٍ. وقد اشتدّ نقد حنفي لهذا الصنف بلُغة قاسية، فهو لا يعتبر هذا الموقف موقفًا محافظا، فالموقف المحافظ يدل على وعي بالقضية، بل هو موقف الذين يريدون الحفاظ على مصالحهم الذاتية ومناصبهم. ويتهمهم حنفي بالنفاق، والعجز، والنرجسية.
2. الموقف الثاني القائل بالاكتفاء الذاتي للجديد، وأن التراث لا فائدة منه وسيلة أو غاية. وحنفي يعتبر أن هؤلاء على حق من حيث المبدأ، لكن على خطأ من حيث الواقع؛ لذلك يقع هؤلاء في قُصور النظرة العلمية والعزلة والتقليد والازدواجية.
3. الموقف الثالث القائل بالتوفيق بين التراث والتجديد، ويرى حنفي أن هذا الحل ينتهي في النهاية إلى الإنحياز لأحد الموقفين الأول أو الثاني.

ثم يعرِّج على أزمة التغير الاجتماعي،

مُبيِّنًا أن التراث والتجديد هو ردّ فعل على المحاولات المتعثرة في التغير الاجتماعي. تلك المحاولات المتعثرة هي السالفة الذكر المتمثلة في التغير من خلال التراث القديم، أو من خلال الجديد فقط، أو التغير بواسطة القديم والجديد. ويُفسِّر حنفي أسباب تعثُّر الفريق الأول في التغير الاجتماعي بسبب: سيادة النظرية الإلهية على الفكر النظري، وسيادة التصور الرأسمالي للدين وهو التصور الهرمي للدين فكل مَنْ «فوق» هو أعلى، وكل مَنْ هو «تحت» أدنى وأحطّ، وسيادة التعصب بدل الوعي الفكري.

ويُفسِّر حسن حنفي أسباب تعثر التغير الاجتماعي عند القائلين بالأخذ بالجديد فقط، بسبب: التشدق بألفاظ صعبة على الجمهور، والتبعية لفكر الغرب، ومعاداة التراث القومي للجماهير. وكذلك تعثرت محاولة التغير الاجتماعي بالنسبة للآخذين بالجديد والقديم لأنهم ليس عندهم أساس نظري متين، يمكن قيام التغير على أساسه، وأنهم يقومون بالتغير لصالح طبقة معينة وهي الطبقة المتوسطة.

إخفاقات الاستشراق والخطابية

في الفصل الثالث، وهو فصل مهمٌّ، يناقش حنفي أزمة مناهج الدراسات الإسلامية المتمثلة في الانفصال الحادث بين شخصية الباحث المسلم وموضوع البحث. فالتراث قضية وطنية، وهو قضية شخصية للباحث في ذات الوقت، لأنه ينتمي إلى هذا التراث فكرًا ولغةً وتاريخاً. لهذا يُلاحظ حنفي أن الخطأ في الحكم النهائي ناتجٌ عن خطأ مبدئي في المنهج المُتبع. خاصةً لو كان موضوع البحث في داخله بذاته منهجًا والباحث يتعامل معه بمنهج خارجي عنه. وهذا ما أدى إلى شُيوع النزعة (العلمية/الأكاديمية) عند الباحثين من المستشرقين، وشيوع النزعة (الخطابية) عند الباحثين من المسلمين.

وبالنسبة للنزعة العلمية التي تسود دراسات المستشرقين يرى حنفي أن أزمتها بالأساس هذا التصور (المادي) للظاهرات على مستوى العلوم الإسلامية التي قامت في التاريخ الإسلامي. بمعنى، أن المستشرق يدرس التاريخ كتاريخ خالص مكون من شخصيات وأنظمة اجتماعية تاريخية محضة.. وبهذا تنقطع الظاهرة عن طابعها المثالي المستمد من الوحي ابتداء، وعن الواقع الذي هو أساسها.

ويُفسِّر حنفي فشل الدراسات الإستشراقية بعدة أسباب:

- لأن جُلّ المستشرقين لا يؤمنون بالوحي الإسلامي، فيدرسون الظاهرة منفصلة عن أصلها الإسلامي الذي هو الوحي؛
- عدم تخصص المستشرق في مجال بحثه؛
- بسبب النشأة الأوروبية للمستشرقين ذاتهم، فالفكر الأوروبي مرّ بتطورات معينة حتمت ظروفًا تاريخية مغايرة.

لذلك يعتبر حسن حنفي أن دراسات المستشرقين ما هي إلا «موضوعات دراسة

وليست «دراسة موضوعات». بمعنى، أنه لا ينبغي أن نتخذ الدراسات الاستشراقية كدراسة مسلّم بها، بل ينبغي التثبت من مصادرها تاريخيا وعلميا.

وفي كلام طويل، تعرض لمناهج المستشرقين الأربعة (المنهج التاريخي، والتحليلي، منهج الإسقاط، ومنهج الأثر والتأثر). وقد أفرد شرحا طويلا خاصة في أول التعرض لـ«المنهج التاريخي»، بكلام هام لا يُمكن اختصاره، بل يُقرأ كله. ويعد هذا الفصل من أقيم فصول الكتاب، ففيه نقد مهم للمناهج السائدة، ويُعطيك خلفية عن منهجية حنفي في التعاطي مع التراث.

أما بالنسبة للباحثين المُسلمين الذين غلبت منهجهم النزعة الخطابية؛ فذلك ليس إلا لأن منهجهم ناتج عن أزمة أكثر من صدوره عن موقف فكري أصيل. يعترف حنفي أن هذا الاتجاه— وإن كان يُعطي الأولوية للوحي على التاريخ بخلاف المستشرقين—إلا إنه اتجاه ساذج يعبر عن مراهقة فكرية أوقعته في مشكلات عدة:

- التكرار وتحصيل الحاصل وهو تكرار مضمون النصوص المدروسة؛
- التقريظ أو الدفاع، فهو يقبل الموضوع، ويسلم به ويُبرر له، دون وضعه موضع سؤال؛
- الجدل والمهاترات، وهذا ينتج عن التسليم للموضوع تقريظًا ودفاعًا فيجعل الباحث يُهاجم كل من خالفه؛
- الحدس قصير المدى، القائم على بديهيات معروفة.

ينتهي حنفي بالنسبة لمنهج المسلمين من الباحثين إلى أنه أيضًا «موضوعات دراسة» وليست «دراسة موضوعات». وإذا كان خطأ النعرة العلمية عند المستشرقين أنها تعرف (كيف تقول؟) دون أن تعرف (ماذا تقول؟) فإن خطأ النعرة الخطابية عند المسلمين أنها تعرف (ماذا تقول؟) لكنها لا تعرف (كيف تقول؟). والتراث والتجديد هو الذي يتفادى الخطأين بمعرفة ماذا يقول (التراث) ومعرفة كيف يقول (التجديد).

قواعد التجديد

في الفصل الرابع يُرسي حسن حنفي قواعده في التجديد التي سيبني من خلالها برنامجه التجديدي. وقواعد التجديد هي:

- أولاً، التجديد اللغوي، ويتم ذلك عن طريق الإسقاط التلقائي للألفاظ المُتداولة في واقعنا الآن للمعاني القديمة، كما كانت الألفاظ القديمة تعبر عن الواقع التي كانت فيه. هذه المهمة في التجديد اللغوي مهمة صعبة، وينبري لها حنفي نظرًا لما يُسميه بقصور اللغة التقليدية؛ في كونها لغةً إلهية، تتمركز حول الله (سبحانه) الذي اسمه في أصول الفقه (الشارع) وفي التصوف (الواحد)... وهنا يظهر المنهج الذي يتبعه حنفي— وهو لا يصرح به— المنهج الفيورباخي (نسبة إلى الفيلسوف الألماني فيورباخ) الذي يتمثل بالإنسانيات المقلوبة.

فعند حسن حنفي، أصبح الله— تعالى الله علوا كبيرا— ما هو إلا تعبير عن اقتضاء أو طلب ولا يعبر عن معنًى معين.

كما أن اللغة القديمة لغة دينية تتمركز حول الغيب والنبي (ص)، ولغة صورية مجردة. المهم أنه بنهاية المطاف، يريد حنفي أن يعلن عن لغته «الجديدة» التي تقلب هذه اللغة القديمة. فبدلًا من لفظ الإسلام، نضع الأيديولوجيا كمصطلح يتداوله العصر. وهذا الفصل مليء بتناقضات عجيبة، كما أن القارئ سيلاحظ الازدواجية العقلية عند حسن حنفي في نقد الشيء وإثباته بطريقة أخرى.

– ثانياً، اكتشاف مستويات حديثة للتحليل– الشعور، وذلك بالكشف عن مستويات حديثة للتحليل من خلال مستويات عامة مشتركة بين العلوم الموروثة؛ مما يمكننا من الكشف عنها. أهم هذه المستويات هو الشعور، فهو أدق من العقل والقلب، كما يرى حنفي.

– ثالثاً، تغيير البيئة الثقافية، وهو المستوى الثالث للتحليل بعد المنطق اللغوي ومستوى التحليل الشعوري. ويريد حنفي أن يثبت من خلال هذا المستوى أن العلوم الدينية التي نشأت، قد قامت من واقعها هي، فهي ليست مطلقة. بل هي علوم نسبية حاولت التعبير عن الوحي ضمن آليات عصرها.

الانطلاق من الوحي

أخيراً، يختتم فصله الأخير بعنوان موضوعات التجديد: إعادة بناء العلوم، وذلك من خلال البدء من الوحي باعتباره الركيزة الثابتة لجميع العلوم وهو في ذات الوقت الموضوع الأساسي لهذه العلوم. باختصار، يُريد حنفي أن يقول أن كل العلوم هي محاولة لصوغ نظرية أو نظريات علمية حسب واقعها وفهمها لهذا الوحي. ومن هنا يُعطي لنفسه الشرعية كمجدد— كما يعتبر نفسه فقيها أو مجتهدا يجدد للمسلمين أمر دينهم— إعادة بناء العلوم القديمة وفقًا للواقع المعاصر وحاجات العصر. فمثلًا يعيد بناء علم أصول الدين الذي كان يهتم قديماً بمسائل الصفات والذات، أي أنه متمركز حول الإله (سبحانه)، فتتم إعادة البناء بحيث تجعل هذا العلم يناقش (الإنسان) بدلا من الإله. وعلم أصول الفقه الذي أعطى أهمية للعبادات يعيد بناءه بحيث يركّز على المعاملات. والتصوف الذي به قيم سلبية مثل التوكل والإنابة والبكاء يتحول إلى عمل جاد. هذا على مستوى العلوم العقلية. وعلى مستوى العلوم النقلية، مثلا، فعلم السيرة نجعله يركز على الحوادث لا الأشخاص حيث لا نقع في تضخيم الأشخاص، وعلم الحديث الذي يهتم بالسند نقلبه فيهتم بالمتن.

وهكذا، تشمل إعادة البناء كل علوم التراث؛ من عقلية لعلمية لإنسانية لطبيعية، لخدمة التراث والتجديد، في مشروع المفكر المصري حسن حنفي.

عرض: كريم محمد - مصر
kmohmed84@gmail.com